حي "بيت المال"

ليلى أبو العلا

ترجمة: بدر الدين حامد الهاشمي

ليس لبنتنا ثغر ولا أسنان. مصمتة الشفاه وكأنها مَخِيطة. كأنها ~~كانت كذلك~~. أما شعرها فهو كَثّ وقوي ليحمي رأسها. وهناك عيناها، يقظتان دوماً؛ أما أذناها فقد كانتا حساستين وواسعتين. تراقب البنت صغار الضفادع الخضراء وهي تسبح في المياه اللزجة مستخدمةً أذيالها، وعلى أجسامها المستطيلة الشكل بقع هشة داكنة، وهي في نعومة اليرقات. تبدو صغار الضفادع رشيقة وجميلة ومكتنزة وهي تسبح غير عابئة بالتغيرات التي ستلويها وستحرفها عن الشكل الذي ستتحول إليه في نهاية المطاف. ترى بنتنا من خلال شَفّافِيَّة الماء الخطوط العريضة لرؤوس تلك الضفادع الصغيرة في المستقبل. البنت هي من النوع الذي يستمع جيداً. فبينما يسمع الآخرون النسيم وهو يمر عبر الشجيرات حاملاً أصوات قرع طبل من شاطئ النهر، كانت بنتنا تسمع الأرواح. تسمع حركة جني محاصر في شجرة أكاسيا ضخمة، وهو يتململ ويشكو ويئن، ولا يصمت عن ذلك إلا عندما يؤذن مؤذن المسجد؛ أو عندما يستمع لآيات من القرآن تُتْلَى بالقرب منه. حين ذاك يغدو كل شيء أخضرَ يعمه السلام.

تركض البنت حول الحوش، فهي ليست من النوع الذي يظل جالساً في سكون. لا تغني، بَيْدَ أنَّها تومض بعينيها، وأصابعها تمسك بأثواب المسنات من النساء، وتلمس ضفائر صغار البنات، وتمسح على ذيل القطة؛ وتحتضن بيديها الصغيرتين قِدْراً من الحساء الدافئ، وقرعة فارغة. تدلف نحو جوال تمر وتأخذ منه تمرة تضعها في فمها؛ لم تجدها حلوةً بما يكفي. لديها أسنان ولسان. الصوت فقط هو الذي ينتظر في الأعماق ليخرج، وعندما يحدث ذلك، ستصيح البنت بأعلى صوتها.

يتكون حي "بيت المال" من بيوت من الطين وأزقة متفرعة، تتلألأ فيها المياه المَدْلُوقة، التي يتصاعد منها البخار تحت أشعة الشمس الحارقة. تحدق في الجدار الخارجي للمنازل، ورقائق ما بها من ألوان: صفراء، وحمراء داكنة، ولون الحناء، وما هي بالحناء. لِمَ تكون مياه النهر زرقاء، بينما المياه التي تشربها غير ذلك؟ ولماذا تكون لون الخطوط على راحة يدها أغمق من لون بقية راحة يدها؟ ولم تر أن شفاه أمها تبدو سوداء جافة، بينما تشاهد الطين يلمع بلون أسود رطب؟ لا بد لها من أن تكتشف الإجابة عن تلك الأسئلة بنفسها، أو أن تنتظر حتى تتكون تلك الإجابات بذات الطريقة التي تبدأ بها النساء المتزوجات حديثاً في حمل الأولاد والبنات في مكان واسع ومرن تحت قلوبهن.

لوح من الثلج ترى البنت بداخله بلورات. وبغض النظر عن المشروب اللذيذ الذي تم شراء الثلج من أجله، فليس من المهم معرفة من يحتفل بماذا. ينشر الضوء البارد أشعته نحوها ويخترق بؤبؤ عينيها. وترى كل بلورة ثلج كمساحة منفصلة، خلية مربعة ذات جدران شفافة. وبداخل كل بلورة شكل سري خفي. وتسمع صوت فرقعة حين يُضرب لوح الثلج بفأس وتتطاير منه شظايا. يا بنت، أبعدي من هنا! خطر في لوح الثلج. تغلق عينيها وتمتزج دموعها بالماء الذي ذاب لتوه. ألقت نظرة خاطفة على عالمٍ مخفيٍ في ذلك الثلج، وسر مخبوء ومَكْنون، مثل كل تلك النبضات الموجودة داخل أجساد الكائنات الحية، تلك التي تمشي على بطونها، أو تمشي على رجلين، أو تمشي على أربع.

ترقص النساء. وتتصاعد طرقات طبل وصوت مغنية مكحلة العينين، وجبهتها مبللة بحبات العرق، وهي تمط شفتيها وكأنها في حالة معاناة شديدة، وفي الحوش تتأرجح دائرة النساء، وهن يتحركن ثَمِلات بنشوة الإيقاع، وسمو المشاعر والانفعالات من فرط تأثير كلمات الأغاني. فاضت عينا بنتنا بالدمع وهي ترى أمها ترقص. تملكتها الغيرة، وأحست بوخز الهجر وكأن أمها قد تركتها في مكان ناءٍ. كانت والدتها في الحقيقة قد أسلمت جسدها للإيقاع تماماً، ولم تعد موجودة مع الناس؛ دخلت في غشية نشوة عارمة، ظلت منغلقة على ذاتها، في عالمها الحر الخاص بها. لم تعد رهن إشارة رب منزلها، ولا ضيوفه، ولا حتى رهن إشارة أطفاله. حشرت البنت نفسها بين سيقان النساء المكتنزة القوية في تلك الدائرة ومضت تبحث عن أمها. غير أن أمها كانت في شغل شاغل عنها. انتفخ صدر الأم وتساقطت حبات العرق من وجهها؛ وتدلت جفونها، وأُثِيرَتْ كل خلية في جسدها. لم تعد أماً، وهذا هو تحديداً ما جعل البنت تستغرق في البكاء. ليس هناك أدنى تعاطف من خالة أو عمة أو جدة. تحولت النساء. ثارت في أجسادهن نوبة جامحة وهن يتلوين، ويجدن النشوة في وجع أعمق. يحضن ويَرْضَعْنَ وهن شديدات الخصوبة. تضج أجساد بعضهن بالهرمونات، وبعضهم كن قد بلغن سن انقطاع الطمث. يحببن أنفسهن ويحببن الأخريات كذلك، ويرغبن في التَّنَهُّدِ والانْتِحاب وفي ضرب الأرض بأقدامهن، ويرفضن كل مسؤولية تحت الشمس. يمثل وجود طفل مسؤولية ...عبئاً ينبغي حمله وحمايته وإطعامه. أمسكت البنت بفستان أمها، بيد أنها لم تجد أي استجابة، ولا حتى صفعة أو عتاب. طفلة صغيرة، ضئيلة الحجم في داخل دائرة ترقص فيها نساء. تنظر البنت إلى أعلى، وتلوح بطونهن وأذقانهن فوق تلك البنت الصغيرة، وتحت أذرعهن بقع داكنة، ويتأرجح الخرز فوق جِذْوعهن، بعيداً عن متناولها. قرع الطبل، ودخان البخور، وتلَوّي الأجساد في حفل الشفاء والانعتاق والإفراج.

وفي الليل، ترفع البنت ناظريها فترى النجوم، وظلالاً صفراء، والقمر. هناك الكثير مما يمكن مشاهدته، صمت الغيوم، وبساط كتاني لا نهاية له، وهي ترقد تحته بجسدها البالغُ الصِّغَر. تدرك بأنها رخوة ناعمة،

ليست مثل تلك النجوم؛ وأنها نحيلة القَدّ، ليست مثل ذلك القمر؛ وأنها مثل البُرعُم الصغير، ليس لها من حامٍ سوى عائلتها. تستيقظ في منتصف الليل على صوت المطر المزعج، وحفيف الرياح وهي تَهَبْهَبَ ملاءات الأسِرَّة، وقعقعة القدور في المطبخ. وحين تلتمع البروق في السماء تلمح جدتها (حبوبتها) وهي تجمع الفراش، وتسمع صوتها يطلق الأوامر. ويصرخ طفل صغير عند سماعه هزِيم الرعد. يغير المطر من لون مَطْلَعِ الْفَجْرِ ويخففه. تغدو الأرض أدكن لوناً، ولون العشب أَكْثَرُ خِفَّة. وتختفي الشمس طوال اليوم وتروح في قَيْلُولَةُ.

تمتاز يدا البنت بقوة ملحوظة، فباستطاعتها الإمساك بأي شيء. فأصابعها تفعل دوماً كل ما ترغب في فعله. وتراقب حبوبتها وهي تنسج السلال وتخيط الجلد؛ تتعلم منها. تراقب حبوبتها وهي تطرز الطَواقِي التي يرتديها الرجال، من خيوط برتقالية، وخضراء فاتحة، وزرقاء، ذات نمط ضيق محدد في كل مكان: حتى صغار الأولاد يحتاجون للطواقي؛ طواقٍ توضع أعلى الرأس ولها ألوان متعددة، وذات لون واحد، ليست فاخرة جدا، وليس فيها من كثير تزويق. تكون مواد النسيج لينة طيعة في يدي الحبوبة، التي تمضي مستغرقة تماماً في عملها. وتهمهم الحبوبة (وهي مصدر التشجيع والراحة المقرب) بالحمد والشكر، وتتحدث أحياناً عن سالف أيامها. تفوقها الجدة بالطبع في السرعة، ولكنها ستلحق بها. تسرع البنت، فتصْطَك أسنان الجدة وتخبرها بأنها قد أخطأت. من الأفضل لها أن تبطئ، وألا تتعجل، وأن تبقى دوماً هادئة ومتزنة؛ فمن الخير للمرأة أن تكون جادة وقورة وليست خفيفة متعجلة.

تتحدث الحبوبة عن أيام طفولتها. في ذلك الزمان الغابر الذي تعلمت فيه – للمرة الأولى – تَقْليب "سواطة" العصيدة، وخياطة مراكيب الجلد. قالت:

"في 1884 كانت أمدرمان تحت حصار جيوش المهدي. كان أولئك الجنود يحومون حولهم في مراكب صغيرة، وأشرعتها مثل أجنحة الجوارح البيضاء، وهم يطلقون آلاف الطلقات النارية على قلعة أمدرمان كما لو كان لديهم إمدادات لا نهاية لها من الذخيرة. كان الناس يتساءلون: "لن يكون لديهم – بعد حين - ذخيرة للقتال بها ". كانت البواخر الحكومية هي التي كانت تحمي أمدرمان، وكانت هي الهدف. كان أنصار المهدي يطلقون النار على أم درمان، وكانت قلعة أمدرمان ترد على نيرانهم بكروب (Krupp). ما هي كروب؟ إنها مدافع ألمانية كبيرة تطلق القذائف. ثم تقدم زعيمهم حمدان أبو عنجة وعزل أم درمان عن النيل. غير أنه لم يستطع الْمُضِيّ قُدماً ليسيطر عليها بسبب وجود ألغام مدفونة. إذن ما الذي فعله حمدان أبو عنجة؟ أرسل قطيعاً من الثيران! داست أقدام تلك الثيران على تلك الألغام، وحدثت الكارثة! وتم تفجير الثيران كلها!"

اتسعت عينا البنت وهي تستمع لتلك القصة وتراها بعين الخيال عرضاً وحشياً لألعاب نارية. كانت ترى في خيالها اللحم والعظام التي تحترق وتغدو برتقالية أو سوداء اللون من أثر الحروق السطحية، ثم تغرق في أرض الحي.

واصلت الحبوبة سرد قصتها، وقالت:

"كان الجيش الذي دخل أم درمان يتألف من عائلات. زوجات وأطفال، مع ماشيتهم؛ كانوا يبدون كاللاجئين. أناس من غرب السودان، من أماكن تعتمد على سقوط الأمطار والسحب. لم يكن قد رأوا نهراً في حياتهم".

"ولا حتى تمساح؟"

ضحكت الحبوبة وردت على سؤال الطفلة: "وكيف لهم أن يروا تمساحاً؟ هم يتنقلون في الصحراء. وشرعوا قليلا قليلاً في بناء منازل. غير أن أولئك المساكين كانوا في بداية أمرهم ينشرون قطعاً من القماش على عيدان من الخشب طلباً للظل. ثم دخلوا السوق، إلى أن فاض بهم وبما يجلبونه من كل أطراف البلاد. وبذا غدت أم درمان أكبر".

وواصلت الحبوبة في حكايتها: "وبعد شهور قليلة من ذلك سيطر المهدي على الخرطوم أيضاً، وأمر سكانها بالانتقال لأم درمان، التي صارت الآن هي العاصمة الجديدة، كما قال. بقعة لحكومة سودانية أصيلة، من غير أي نفوذ أجنبي. وأقاموا في أم درمان خزانة الدولة أي (بيت المال). كانت هنا، مقابل الشارع الكبير، في ستة مبانٍ من طابق واحد بها موظفين وكتبة. كان الناس يأتون لبيت المال ويوقعون على عقود ويأخذون قروضاً. وكان الإداريون والمحاسبون يوزعون الأراضي المصادرة. وكان هناك نظام معين – شارك فيه أبي - فيه تتشارك الحكومة مع المزارعين في المحصول. وفي مكان ببيت المال كانت هناك مخازن للصمغ الذي كان يرد لأم درمان بالمراكب. وكانت هناك أيضاً مخازن لأكوام من ريش النعام وجوالات السمسم، وأكوام من الملح الصخري.

"وفي وسط (بيت المال) كانت هناك مساحة محاطة بالجدران تتكون من مجموعة من الأغصان الشوكية، مكدسة معاً بإحكام. ولم تكن تلك الزريبة للأبقار أو الخيول، ولكن للنساء. كن من ممتلكات (بيت المال)، حيث كن قد أُسرن في الحروب، ولم يكن لهن عائلات تدفع فِدْيات لتخليصهن من الأسر، أو كانت لديهن عائلات ولكنهم كانوا فقراء ليس لديهم من أموال يدفعونها فِدى. وكانت هنالك مزادات لبيع الرقيق يقبل عليها الرجال ليبادلوا ما عندهم بمرضعة أو خادمة، أو زوجة تكون زهيدة الثمن. وفي تلك الأيام كان دولار ماريا تريزا يساوي الفين من الريالات المحلية، وكان كل فرد يجد في ذلك السوق ما يناسب ميزانيته".

وأرتها الحبوبة دولار ماريا تريزا كانت قد خبأته تحت ملابسها – رغم تغيير العملة – في محفظة جلدية تتدلى من رقبتها. كانت المحفظة حمراء جميلة... حمرة الجلد، وليست حمرة الفلفل الحريف (الشطة) ولا حمرة الدم. التمعت العملة الفضية في راحة يد البنت. مررت البنت أصبعها عليها فوجدتها ملساء وذات نتوءات على طول جوانبها. رأت حروفاً تتعلمها في المدرسة. وجه المرأة في دائرة، وصدرها، وذقنها المزدوجة، وشعرها وأنفها - على الرغم من أنه كان من الأفضل لو كانت الصورة مستقيمة وليست جانبية. كل العملات المعدنية في كل مكان كانت ستظهر وجه هذه المرأة نفسها، دوائر بذات الوجوه مراراً وتكراراً، دائرة بوجهها، ودائرة أخرى بوجه. سمحت الحبوبة لحفيدتها باللعب بتلك العملة المعدنية لأي وقت تشاء، وهي تثق في أنها لن تفقدها أو تضيعها في مكان ما.

لم تكن طفلة خرقاء. لم تكن تدع الصحون ولا قوارير الماء تسقط من يديها. ولم تكن تنثر قط الخرز أو الثمار العنبية. ما في يدها يبقى آمنا وسالماً وفي حرز أمين. لذا كان أهلها يطلبون منها القيام بحمل الأشياء من بيت لآخر. فتراها تمشي في الأزقة وهي تحمل قوارير العطور الغالية، أو ثوباً جديداً لعروس. ولم تكن من النوع الذي يتوقف وهي في طريق عودتها لدارها كي تشاهد الصبية وهم يلعبون باللِّي، ولم تكن من البنات اللواتي يعشقن القهقهة والضحك. وعندما تمر بشجرة الأكاسيا الضخمة تلك، تسمع صوت الجني المحبوس فيها وهو يتوعدها بصوته المبحوح الهامس المرعب. تجفل البنت ويبرد الدم في عروقها، وتكاد تدلق ما في الصحن الذي تحمله... تكاد تفعل ذلك، ولكنها لا يقع منها ذلك أبداً. تهدئ من روع نفسها وهي تتبع ظلال الغبار تحت قدميها... رمال مختلفة عند غروب الشمس وشروقها. لم تفتها ملاحظة لون شجرة "الجهنمية" التي ارتفعت فوق جدار جارهم. أومأت إليها أغصانها، فردت عليها البنت بالابتسام، إذ أن خوفها قد زال.

عندما تتكلم البنت، فإنها تتكلم مع النباتات بلغاتها. تتحدث إليهم بما يودون سماعه، وبما يحتاجونه للنمو والازدهار. تمتد جذورها عميقة في التربة، تحت أقدامها، وتنتشر داخل الأرض حتى تبلغ المقابر، حيث يرقد الأموات. وتتشابك جذور النباتات بالعظام وبالأسنان ... جذور قوية ولكنها غير مستقيمة، برية ولكنها مَمْسوكة بقوة تحت قدميها. تستأهل الجذور كل الاحترام، فما يستخلص منها بعد غليها يداوي الإسهال والحمى. للجذور هيبة وجلال. تهابها البنت وتحترمها، وتدرك مدى جاذبيتها وتأثيرها. إنها تعلم أنها إن غادرت، فإنها لا محالة ستعود إلى هذا الحي، صاحب الاسم المهيب. بيت المال في مدينة أمدرمان القديمة.